


Princeton University Library
32101 075639656

المصريون في لبنان وسورية

قبل مائة سنة

محاضرة تاريخيَّة

القاها الاستاذ ابراهيم بك ابو سمرا غانم

في

نادي اخوية القديس يوسف في بيروت

مساء الثلاثاء ٢ شباط ١٩٣٢

بمناسبة مرور مائة عام على فتح حكومة محمد علي باشا لبنان وسورية

(ظهرت في مجلة المشرق)

وطبعت على نفقة ابن المحاضر

هنري ابراهيم ابي سمرا غانم

من تلامذة الحقوق

المطبعة الكاثوليكية . بيروت

١٩٣٢

Ghanim

المصريون في لبنان وسورية

قبل مائة سنة

محاضرة تاريخيّة

القاها الاستاذ ابراهيم بك ابو سمرا غانم

في

نادي اخوية القديس يوسف في بيروت

مساء الثلاثاء ٢ شباط ١٩٣٢

بمناسبة مرور مائة عام على فتح حكومة محمد علي باشا لبنان وسورية

(ظهرت في مجلة المشرق)

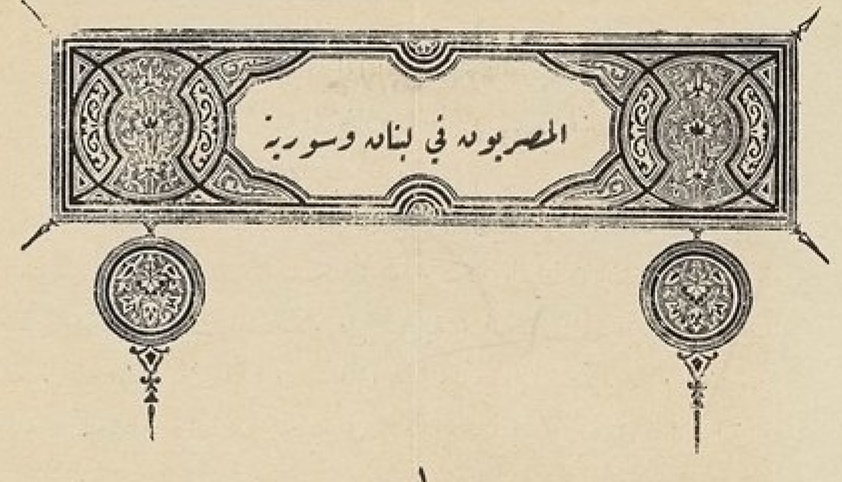
المطبعة الكاثوليكية . بيروت

١٩٣٢



معسكر ابراهيم باشا امام يافا





١

يوافق هذه السنة التذكار المئوي لدخول المصريين بلادنا بقيادة ابراهيم باشا الفاتح الشهير . وقد نجم عن ذاك الفتح نتائج اجتماعية وادبية وسياسية من حسنة وسيئة ، منها ما اضمحل بجلاء الجيوش المصرية ، ومنها ما لا يزال اثره باقياً حتى اليوم . فرأينا ، بهذه الموافقة ، ان نورد بعض معلومات وملاحظات عن ذاك الفتح نخالها تفيد القرّاء الكرام وتلذّ لهم :

الاستيلاء على لبنان وسوريا

بعد ان ظفرت الجيوش المصرية التي كان يقودها ابراهيم باشا واخوه طوسون ، ابنا محمد علي ، بالوهابيّين الذين كانوا يُغيرون على البلاد الحجازية ويتعدّون على قوافل الحجّاج ، فكّر محمد علي بانشاء جيش منظّم على الطريقة الاوربية . فعهد بالامر الى الكولونيل سيف الفرنساوي الاصل ، الذي صار فيما بعد سليمان باشا ، فنجح هذا في مهمّته . وقد انشأ ايضاً في الاسكندرية بحرية ، وفتح في القاهرة معملاً لصنع الاسلحة والمدافع وسائر المعدّات الحربية . وقد قام بجميع هذه الاعمال رجال اختصاصيون من الفرنسويين . انما جميع هذه المشاريع اعوزتها الاموال الوافرة واكرهت محمد علي على وضع الضرائب على المصريين الذين ما لبثوا ان شكوا من فداحتها . وكان الفلاحون يساقون

قسراً إما الى الجندية وإما الى المصانع ، فاقفرت منهم الديار والمزارع ، وفرّ نحو عشرة آلاف شاب الى خارج القطر ويمّم معظمهم سورية ، وخصوصاً ايالة عكا التي كان يحكمها عبدالله باشا.

ولما اعان محمد علي الدولة العثمانية في حرب المورا ، اخذ وعداً من الباب العالي باستلام ولاية سورية مكافأةً له. ولكن السلطان اخلف بوعده . ففكر العزيز في ايجاد سبب للاستيلاء على سورية ، فكتب الى عبدالله باشا يسأله ان يُعيد اليه المصريّين المهاجرين . فأبى هذا مدّعياً ان المصريين هم ايضاً من رعايا الدولة العثمانية وان لهم الحرية في الاقامة حيثما يشاؤون في البلاد التي تظلّلها اعلامها.

وكان الباب العالي ، قبل بضع سنين ، قد اصدر امراً بفصل عبدالله باشا من ايالة صيدا ، فشفع به محمد علي اجابةً لرجاء الامير بشير ، حاكم لبنان ، فاعيد الى ولايته. وقيل ايضاً انه كان قد اسعفه بمالٍ جزيل أرضى به رجال الدولة ، ومعلوم انه لم يكن يتمّ امرٌ في تلك الايام في تركية بدون ان يمثل المال دوره ، فطالبه به ، فابى دفعه. فرأى حينئذٍ ان الفرصة قد سنحت له لتنفيذ ما كانت تصبو اليه نفسه ، ولا سيا ان الدولة كانت في تلك الايام منهوكة القوى خائرة العزيمة بعد المصائب التي حلّت بها إثر ثورة علي باشا ، حاكم يانيا ، وغب ثورة اليونان التي عضدتها فيها فرنسة وانكلترة فنالت استقلالها التام ، بعد ان حكم الاتراك فيها منذ فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ . وفضلاً عن ذلك فان السلطان محموداً كان قد بطش بالانكشارية ففقد الجيش العثماني بهلاكهم ما كان باقياً له من القوة والصولة...

في الثاني من تشرين الثاني سنة ١٨٣١ ، زحفت الجيوش المصرية برّاً على الاراضي الفلسطينية ، وخرجت في الوقت نفسه العمارة المصرية من الاسكندرية ووجهتها الشواطئ الفينيقية ، فرابطت امام عكا . وتراجع عبدالله باشا امام المصريين الذين كان يقودهم ابراهيم باشا وسليمان باشا الفرنساوي . واستنجد بالسلطان فورده الجواب يستحثه على الثبات ، ويعده بالنجدات . ولكنه لم يفعل بينما كان محمد علي يداوم على ارسال الرجال والاعتدة الحربية الى ولده .

وقد دام الحصار نحو سبعة اشهر أظهر فيها المدافعون عن عكا بسالة فائقة . ولكنهم غلبوا اخيرًا على امرهم ، فاستولى ابراهيم باشا على المدينة ، ودخلها ظافرًا في السابع والعشرين من شهر ايار سنة ١٨٣٢ بعد ان خسر من جنوده اربعة آلاف مقاتل. وكان المدافعون عن عكا جنودًا من الارناووط والاتراك ، ولو انجدتهم الدولة العثمانية بالقوات لعجز المصريون عن فتحها . ولو كان رجال هذه الدولة ذوي يقظة وتحوّط للطوارئ التي كانت تتهدد سلامة المملكة ، ولو كان السلطان محمود تنبه لخطورة موقع عكا في ذلك الحين ، ولو كان رجال السياسة لهم المام بتاريخ الدول ، لادركوا ان عكا كانت في كل وقت تُعدّ مفتاح سورية ، وانه في الاجيال المتوسطة كان اعظم الفاتحين في الشرق والغرب ، كفيليب اوغست ، وريشار قلب الاسد ، وصلاح الدين الايوبي ، والملك العادل وغيرهم يتنازعون السيطرة على مَعقل عكا ، ولكانوا عرفوا ان نابليون العظيم لما شاء توسيع فتوحاته في سورية فكر اولًا بالاستيلاء على هذه المدينة.

وبينما كان ابراهيم باشا يحاصر عكا ، بعث الى الامير بشير شهاب ، والي لبنان وسيده الاكبر ، يبشره بقدومه ويطلب منهُ ان يوافيه الى حيث هو . فلبى الامير الطلب وجمع رجال لبنان وجاء بهم معسكر المصريين ، فاستُقبل بمزيد الفرح والابتهاج . ولا يخفى ان نجدة الامير ورجاله اللبنانيين لابراهيم باشا قد جاءت معزّزة لجانبه ومسهلةً لفتوحاته وتوغله في داخلية بلاد الاناضول.

وقبل ان يتمّ الاستيلاء على عكا ، زحف الجيش المصري واحلافه اللبنانيون على المدن الساحلية ، فاحتلوا صور وصيدا في الرابع عشر من كانون الاول سنة ١٨٣١ ، وفي العشرين منه دخلوا طرابلس . واما دمشق فاستولوا عليها في السادس من شهر حزيران سنة ١٨٣٢ بدون مقاومة.

ولما بلغت الحملة المصرية مدينة حمص ، اشتبكت بالقتال مع العساكر العثمانية التي كانت بقيادة محمد باشا ، والي حلب . وكان عدد العثمانيين خمسة وعشرين الفًا وعدد المصريين عشرين الفًا . فانتصر المصريون ودخلوا المدينة في الثامن من شهر تموز سنة ١٨٣٢.

ثم تقدم الفاتحون الى بيلان فادركوها في التاسع والعشرين منه ، وكانت قد اجتمعت فيها فلول العساكر العثمانيــة ، فدارت بين الفريقين رحى الحرب . وكان يقود العثمانيين السردار ومشير الاناضول حسين باشا . فكلل النصر هام المصريين . وفي الواحــد والعشرين من كانون الاول ، جرت المعركة الكبرى بين الجيشين المتحاربين في قونيه . وكان رشيد باشا ، المعــدود من اكبر رجال الحرب في تركية ، يقود الجيش العثماني البالغ عــدده نيف وستين الف مقاتل . وكان ابراهيم باشا يقود الجيش المصري ، ولم يتجاوز عــدده الثلاثين الفاً . فتأججت نيران الحرب وحمي وطيس القتال وتصادم الفريقان متلاحمين ، فخرج المصريون منصورين ظافرين ، وولى العثمانيون من امــامهم مدبرين لا يلوون على شيء . وقد اسر العرب الموالون لابراهيم باشا رشيد باشا وجاؤوا به اليه . وبلغ عدد قتلى العثمانيين ثلاثة آلاف رجل ، وأسر عشرة آلاف . وقد جاء هذا النصر اعظم الانتصارات التي حازها ابراهيم باشا منذ زحف على سورية .

ولما بلغت اخبار هذه المعركة دول اوربة ، اهتمت لهــا كل الاهتمام . وامتعضت روسية وانكلترة من فشل الدولة العلية وخشيتا من تقدم المصريين الى الاستانــة ، وتحفزتا للحؤول دون ذلك . فرأت فرنسة التي كانت ترمق الفتوحات المصرية بعين الرضى والارتياح أن تضع حداً لمطامــع محمد علي خوفاً من حرب اوربية طاحنة ، فتداخلت في الصلح بين التابــع الغالب والمتبوع المغلوب ، وعرضت على محمــد علي ولاية سوريــة ، فلم يرضَ وطمع ايضاً بالولاية على الاناضول . وبعد مخابرات طويلة تمّ الرضى على ان توافق الدولة العثمانية على ولاية محمد علي على مصر وكريت ، مع اضافة البلاد السورية وولاية ادنه الى حوزته ، وعلى تجديد ولاية ابراهيم باشا على جدّة ، وعلى منحه لقب شيخ الحرم الملكي الشريف . وقد عقد الصلح في مدينــة قوتاهية في اليوم الرابع من ايار سنة ١٨٣٣ بين السلطان محمود ومحمد علي . وناب البــارون روسين ، سفير فرنسة في الاستانة ، بالتوقيع عن السلطان ؛ وناب ابراهيم باشا

بالتوقيع عن ابيه . وتضمن هذا العقد ايضاً تعهد محمد علي بان يدفع لخزينة الدولة الاموال التي كان يدفعها الولاة السابقون.

اجراآت ابراهيم باشا في سورية

عندئذٍ انسحب ابراهيم باشا بجيوشه من بلاد الاتراك الى سورية ، واخذ يهتمّ بالشؤون الادارية . فغيَّر تقسيم المقاطعات والولايات ، واوجد لها ترتيباً ادارياً جديداً . فجعل نفسه حاكماً عاماً وقائداً اعظم . واقام شريف باشا ، احد اقربائه ، والياً على الشام وعلى برية سينا ، ومنحه لقب حكمدار عربستان . ونصب متسلماً على عكا الشيخ حسين عبد الهادي النابلسي وفوَّض الى الامير بشير تولية من شاء من اقاربه على صيدا وصور وبيروت وطرابلس. ولكن لم يلبث ان رجع عن هذه المنحة ، فعزل الامراء الذين ولّاهم الامير بشير على هذه المدن وسلّمها الى بعض رجاله.

ثم سلخ صيدا عن عكا ، وولّى عليها سليمان باشا الفرنساوي . ويا ليت جميع الحكام الذين ولّاهم كانوا على مثال هذا الرجل! لانه برهن على انه الاداري الحكيم كما برهن على انه القائد الباسل الهمام . وقد جعل حنا بك البحري المسيحي مديراً عاماً للحسابات ، وما زال يرتقي هذا في المناصب حتى نال رتبة امير آلاي . ولما اقام على كل مدينة متسلماً اوجد فيها وظيفة مباشر اناط به ادارة الاموال والحسابات ، والَّف ايضاً في كل مدينة عدد سكانها من عشرين الف نفس فما فوق مجلس شورى من اعيان جميع الطوائف ؛ فكان عددهم في الشام واحداً وعشرين من المسلمين والنصارى واليهود ، وفي بيروت اثني عشر وقد ذكر كتاب « حروب ابراهيم باشا المصري في سورية والاناضول » اسماءهم ، فكانوا من المسلمين : عبد الفتاح حماده ، وعمر بيهم ، واحمد العريس ، وحسن البربير ، وامين رمضان ، واحمد جلول . ومن المسيحيين : جبرائيل حمصي ، وبشاره نصرالله ، والياس منسى ، وناصيف مطر ، ويوسف عيروت ، وموسى بطرس.

وكانت قرارات هذه المجالس في المدن تُستأنف الى مجلس شورى عكا ، او مجلس شورى دمشق ، وعند اللزوم كانت تُميَّز الى القاهرة.

وانشأ محاكم مدنية للنظر في القضايا الحقوقية والجزائية ، ومحاكم شرعية لفصل المنازعات المذهبية.

ولا ريب في ان هذه الترتيبات والتقسيمات قد وُضعت عن حسن قصد ورغبة اكيدة من مُوجدها في السير في سبيل الخير العام وتوفير اسباب رُقي البلاد ونجاحها . ولكن يا للاسف لم يمض وقت طويل حتى ظهر الخلل في تطبيق هذه التنظيمات ، إمّا عن جهل المأمورين واجباتهم ، وامّا عن سوء استعمال الوظيفة . فانهم استبدوا كل الاستبداد في الرعية ، فساموها خسفاً وظلماً ، ولم يجدوا باباً لابتزاز اموال العباد الّا ولجوه ولا طريقاً الّا سلكوه . وقد استنبط بعض الولاة اساليب شيطانية للكسب لم تخطر على البال ، فكانوا يتاجرون باللحوم والفواكه ، ويحتكرون الحاصلات ثم يبيعونها بالمزاد العلني ، ولم يكونوا يسمحون لغير الذين اشتروا منهم ان يبيعوا ما عندهم الا بعد ان يفرغ الذين اشتروا من بيع ما اشتروه . وكان المحاسبون والمباشرون الموكول اليهم جمع الاموال يجرون على هذا المنوال . ولقد تطرق ايضاً هذا الفساد الى مجالس الشورى ، فجاء وجودها اكثر ضرراً من عدمه.

كانت الحكومة المصرية في بدء احتلالها البلاد قد اذاعت بين السكان بلاغاً اعلنت فيه عزمها على تخفيف الضرائب عن كواهل الشعب . ولكنها ما عتمت ان اثقلت مناكبهم بضرائب جديدة لم تكن معروفة من قبل ، فوضعت مال الفُردة ، ومال الدخوليات ، واحتكرت حاصلات الحرير ، وتظاهرت بالغاء الاعانات التي كان يتقاضاها الحكام في عهد الحكومة العثمانية. بيد أنها في الحقيقة لم تلغها الا لتحدث ما يعادلها او يفوقها ، فوضعت ضريبة خاصة على التوت وكافة الاشجار المثمرة كالزيتون وغيره لا تقل عن خمس غلّتها . ولم تُستثنَ منها المغروسات الجديدة ، وهو حيف ضاق الناس ذرعاً عن احتماله فامتنعوا عن غرس الاشجار المثمرة.

اما الفُردة[1] ، وما ادراك ما الفُردة ! فهي الضريبة الملعونة التي هاجت لها الخواطر وتألمت من فداحتها النفوس . وقد كانت عبارة عن مـال وضع على اعناق الذكور الذين تجاوزوا الرابعة عشرة من عمرهم الى الستين منه ، وكانت تؤخذ منهم حسب مقدرتهم بنوع انها لا تقل عن خمسة عشر قرشاً على المكلَف الفقير ، ولو كان معدمـاً ومتسوِّلًا في الشوارع يستندي اكف الناس ، ولا تزيـد عن الخمسائة قرش على المكلف الغني . والـذي زاد في الطين بلَّة هو انه لما نقص عـدد المكلفين ، إمَّا بسبب الوفيـات في الحروب او من الامراض واما بسبب المهاجرة الى البلاد القاصية ، اوجبوا على الاحياء دفع المال المتوجب على الذين توفاهم الله او هاجروا. فمن كان في الاصل يدفع مثلًا خمسائة قرش اصبح يدفع الفاً او الفاً وخمسائة وهو ظلم فادح .

امَّا ضريبة الشونة[2] فكانت عبارة عن تكليف الاهـالي تقديم حاجات الجيش من الحبوب والسمن والزيت ، ونقلها من بلدتهم الى اقرب شونـة عسكرية ، إمَّا على دوابهم او على دواب يستأجرونها بمالهم . ومن تـأخر عن الدفع وعن جميع ما كان يطلب منه من التكاليف كان يُلقى عليـه القبض ويزج في اعماق السجون ، بعد ان يوسع ضرباً ويُسام جميع صنوف الاهانات والتعزير . وقد ادى الامر بالكثيرين الى الفرار فاقفرت المدن والقرى ، ولجأ الكثيرون الى الجبال العالية يقتاتون باعشاب البرية ، يفترشون الارض ويلتحفون السماء ، ويلعنون دولةً كانوا يظنونها الصديقة الرحومة فاذا هي العدوة الظالمة .

---

١) لم اهتدِ الى اشتقاق هذه الكلمة ، أتكون تصحيف فريضة ؟ وقـد جاء في محيط المحيط للمعلم بطرس البستاني : الفُردة عند المولدين ضريبة توضع على الراس .

٢) جاء في المنجد للاب معلوف اليسوعي : الشونة مخزن الغلة .

٢

نتائج الثورات على الحكومة المصرية

بعد ان عاد ابراهيم باشا من انتصاراته على الجيوش العثمانيـة ، فكر في تجنيـد المسلمين جبرًا . فشقّ عليهم ذلك ، ولم يطيقوا صبرًا على احتمال هذه الحالة الشاذة ، فثار ثائرهم . وكان اول من نادى بالعصيان اهالي نابلس ومن جاورهم من الانحاء الفلسطينية . وكان قائد الثورة وبطلها الشيخ قاسم احمد النابلسي ، فمشى الثائرون مهاجمين القدس ، واكرهوا حاميتهـا الى الالتجاء الى القلعة والى برج داود . فلما علم ابراهيم باشا بالامر اسرع بثلاث فرق الى نجدة المدينـة ، فدخلها وتحصن فيها . فاتته نجدة من دمشق بقيـادة الامير آلاي مصطفى بك ، فكمن لها النابلسيون في مضايق عجلون وبددوها . ولما بلغت هذه الاخبار محمد علي أسرع الى نصرة ولده واسعافه بالمدد ، فجاء من الاسكندرية ومعه خمسة عشر الف جندي . ونزل في يافا وراسل الشيخ قاسم احمد ، زعيم الثائرين ، ليرفع الحصار عن القدس مع الوعد لـه بالتسليم بجميع مطاليبه . فحضر الشيخ الى يافا بعد ان امر مواطنيه بايقاف الحصار . ولما قابل محمد علي اشترط عليـه اول كل شيء اعفاء الاهالي من الخدمـة العسكرية ، واعلان العفو العام ، والامتناع عن احتكار الحبوب ، والغـاء الفردة ، واعادة الضرائب الى ما كانت عليه في زمن عبدالله باشا . فقبل محمد علي بهذه الشروط . وعاد الشيخ قاسم الى القدس ورفع الحصار عن المصريين .

ثم سادت السكينة في البلاد الفلسطينية برهـة . وبينما كان الناس يأملون التمتع بالراحة والسلام وقتاً طويلاً ، اذا بابراهيم باشا يُعيد الكرة على البلاد النابلسية على رأس ستة عشر الف جندي . فسالت الدمـاء انهارًا ، وانتشر الدمار في كل ناحية ، فهُدمت نابلس وحبرون ، وأُعمل السيف في رقاب سكانها ، والقي القبض على الشيخ قاسم احمد وسيق الى دمشق حيث قُطع رأسه مـع رؤوس اربعة من ابنائه وكثيرين من مشايخ تلك البلاد .

وفي تشرين الاول من السنـة ١٨٣٤ ، نشبت نيران الثورة في ولاية حلب ، وفي بلاد بعلبك ، وجبل الشيخ . واخذ الثوار يقطعون طرق المواصلات على المصريين ، فلجأ ابراهيم باشا الى الامير بشير لينصره على المتاولة ، فلبّى الطلب مسرعاً وسيّر ابناءه الى جهات بعلبك فاخمدوا في الحال ثورتها .

وفي اوائل السنة ١٨٣٥ ، امتدّ لهيب النار الى فلسطين ، وكليس ، وشمالي حلب ، وادنه . ولكن المصريين اطفأوها بعد ان سفكت دماء غزيرة .

وفي تلك السنة ايضاً امتنع الحوارنة عن دفع الضرائب . فأُرسلت فرقة مصرية لارغامهم على الدفـع . ففاجأتها ، وهي معسكرة في احدى السهول ، جيوش وافرة من دروز حوران والنصارى المقيمين بينهم ، ومن عرب عنزه ، وقتلت قائدها الفريق محمد باشا والامير آلاي يعقوب بك ، وشتّتت شملها . ولما بلغت هذه الاخبار المشؤومة ابراهيم باشا ، وكان حينئـذٍ في انطاكية اعلم اباه بالامر وسأله ان ينجده بالرجال . فبعث اليه وزير حربيته احمد باشا مع تسعة آلاف مقاتل . ولما وصلوا الى اللجا وتوغلوا فيه اطبق عليهم الثائرون ، وقتلوا منهم ثلاثة آلاف رجل ، وغنموا مدفعين وكمية وافرة من معـدات القتال . وقد قتل في هذه المعمعة امير آلاي وعدد كبير من الضباط . وكان في مقدمة ثوار الدروز احد فرسانهم المغاوير شبلي آغا العريان ، الذي منحتـه الدولة العثمانية بعد حين لقب باشا وقلّدته متصرفية بغداد .

فهال ابراهيم باشا خبر اندحار عساكره وعجزها عن التغلب على الثائرين . فسيّر الى الامير بشير الرسل يستنجده على قتال الثوار ، وبعث اليه بستة عشر الف بارودة ليوزّعها على المسيحيين مع الوعد بتخفيض الضرائب عنهم واعفائهم

الى الابد من السخرة . فسُرَّ المسيحيون من هذه الوعود الخلّابة ومشوا الى قتال الثوار في حوران ووادي التيم يقودهم امراؤهم ومشايخهم. وقد وقعت مناوشات عديدة بين الجنود المصرية واللبنانيين من جهة وبين الثوار من جهة اخرى في اماكن عديدة كعيما ونجما ووادي بكا وشبعا . وقد لقي حتفه في هذه المعركة الشيخ فضل الخازن ، والد الشيخ قعدان وجَدّ شهيدي الوطن الشيخين فيليب وفريد. وقدر بعضهم عدد الذين قُتلوا في هذه المعارك بثمانية الاف مقاتل . وقد انتهت اخيرًا بفوز المصريين واللبنانيين . ثم استسلم شبلي العريان فأمّنه ابراهيم باشا واعاد اليه سيفه ، فوعده هذا بتسكين الخواطر.

معركة نزب

مضت سنتان على هذه الثورات الداخلية انصرفت فيهما الحكومة المصرية الى تنظيم الادارة والعمل في تقديم البلاد . لكنها لم تخطُ خطوة في هذا السبيل حتى عادت الى اعداد الأهبات لكل الطوارئ ، لما علمت ان الدولة العلية التي لم تكن تطيق صبرًا على رؤية محمد علي، تابعها في الامس، مرهوب الجانب موفور الجاه ، اخذت ، باغراء بعض الدول الغربية ، تحشد جيوشها وتعدّ معدّاتها لاسترجاع اقسام المملكة التي اكتسحها جيش ابرهيم باشا.

وفي شهر حزيران من السنة ١٨٣٩ مشى الجيشان الى القتال ، وكان يقود العثمانيين الصدر الاعظم حافظ باشا وبعض قواد بروسيين احدهم الجنرال مولتك، الذي اشتهر فيما بعد بقيادة الالمان في الحرب السبعينية ضد الفرنسويين. ويقود الجيش المصري ابرهيم باشا وسليمان باشا الفرنساوي. ودارت بين الفريقين رحى حرب طاحنة دامت يومين ، وانتهت بانتصار المصريين انتصارًا فاق انتصارهم الذي احرزوه في موقعة قونية . ولقد اعتقد الناس ان ابراهيم باشا ، الذي اسكرته خمرة الفوز ، يتابع الزحف على الاستانة فيفتحها ويستولي على تخت آل عثمان . ولكنه رجع عن ذلك ، وبدلًا من السير الى الامام ، تراجع الى الوراء. وكأنه شعر بخطورة موقفه، لا تجاه تركية، بل تجاه انكلترة وحلفائها . وبعد ستة ايام من معركة نزب ، توفي ، في الثلاثين من شهر

حزيران ، السلطان محمود بعلة الصدر . وخلفه السلطان عبد المجيد ، ولم يكن تجاوز السابعة عشرة من عمره . وفي الثالث عشر من ايلول سنة ١٨٣٩ خان الاميرال احمد باشا ، قائد الاسطول العثماني ، دولته ، وجاء بالاسطول الى الاسكندرية فسلّمه في الرابع والعشرين منه الى محمد علي غنيمة باردة . فظن هذا ان الدهر سالمه . غير ان دول اوربة ، ما خلا فرنسة ، استقبحت عمل احمد باشا الخائن وقامت جميعها تطالب محمد علي برد الاسطول.

وقد قضى محمد علي شتاء سنة ١٨٤٠ ، يتأهب للقتال ويهيئ الاعتدة الحربية التي يرافقها عادةً التضييق على الشعب بالضرائب والتكاليف والتسخير والتجنيد . واول عمل اتاه انه اخذ مال الفُردة مرتين في السنة ، وامر بتجنيد جميع الشبان المسلمين الغرباء الذين كانوا في بلاده من غير المصريين . وقبض ايضاً على التلامذة اللبنانيين النصارى الذين كان اخذهم من لبنان كلوت بك رئيس المدرسة الطبية لتلقي فن الطب فيها.

ولما بلغت هذه الاخبار نصارى لبنان اضطربوا وخافوا ان يكون ذلك مقدمة لتجنيدهم . والذي زاد في قلقهم ومخاوفهم هو ما علموه من ان مركباً مشحوناً ثياباً عسكرية رسا في مياه بيروت . فظنوا انها اعدت لهم فاخذوا يفاوضون الدروز في الثورة على الحكومة المصرية فبلغ ذلك ابراهيم باشا ، فكتب الى الامير بشير يستحثه على الاسراع في جمع سلاح النصارى.

ثورة اللبنانيين

ولما اتصلت اخبار جمع السلاح من النصارى باهالي دير القمر ، والديريون، كما لا يخفى، كانوا دوماً السبّاقين الى التحمس للدفاع عن المصلحة الوطنية ، عقدوا اجتماعاً في السابع من ايار سنة ١٨٤٠ وتداولوا في ما يحسن عمله . فقرّ رأيهم على مخابرة اهالي البلاد للمفاوضة معهم . وانتخبوا لجنة التدبير قوامها من الموارنة : ابراهيم عيد البستاني ، ونادر ابي عكر نعمه ، ومنصور مرهج لطيف ، وفارس ثابت ، ويوسف ابو شمعون ، وغندور الكك ، وبشاره الجلخ ؛ ومن الكاثوليك : سلوم الحداد ، وحنا عيسى ، وداود الجاويش ،

وحبيب الصوصه ؛ ومن الدروز : خزوع خبيص ، وحمد الشحاري[1] . فكتبت هذه اللجنة الى اهالي البلاد تدعوهم للاجتماع في دير القمر للمداولـة في الخطة التي يحسن السير عليها . فلبّى ابناء الوطن نداءهم وبعثوا اليهم بوفودهم وتحالفوا على ان يكون لهم رأي واحد وكلمة واحـدة . ثم طفقوا يبثون الدعوة الى الثورة إلَم تعد الحكومة المصرية عن عزمها على جمع السلاح .

وبعد برهة ارسل الامير بشير عماله لجمع سلاح نصارى المناصف والشحّار . فهاج الديريون ، وجاؤوا حيث كان مأمورو جمع السلاح وطردوهم .

ثم بلغهم ان سليمان باشا خرج من صيدا قاصداً دير القمر لجمع السلاح ، فهبوا الى صيدا لمقاومة العساكر المصرية . وعقبهم في الهياج اهالي بعبدا فهاجوا شرذمـة من العساكر المصرية كانت آتية من دمشق الى بيروت واغتصبوا اسلحتها . وكثر اللغط والهرج في البلاد ، وحامت الافكار في كل مكان حول الفتنة . ثم برز للميدان رجلٌ يعدّه التاريخ بطل الثورة الاكبر النافخ في بوقها ، الصائل في حومتها صولات الاسود الاشاوس .

كنت اودّ ان امرّ في الكلام دون ان اذكر اسم الثائر الجديد . ولكن خشيت، ان فعلت، ان اسيء الى الحقيقة التاريخية وانا في موقف المؤرخ . هذا الرجل هو والدي ابو سمرا غانم البكاسيني فانه ما عرف بثورة الديريين ، وهو صديقهم ، الا اخذ منه الحماس كلّ مأخذ مدفوعاً بعامل المروءة والنخوة ، وقد شقّ عليه ، وهو ربيب السلاح ، ان يجرد من سلاحه ويساق الى الحرب مكرهاً ليس للدفاع عن مبدأ وطني ، وانما لخدمة دولة استولى عليها حبّ الفتح والغزو مهما كلفها الامر من الاموال والرجال . فجاء الى سواحل بيروت في اوائل شهر حزيران من تلك السنة . وانضمّ اليه احمـد داغر المتوالي من برج البراجنة ، وطفقا يُغريان الاهلين على العصيان . فتألبت حولهما جموع من برج البراجنة والشيّاح ومزرعة العرب وحارة حريك والتحويطة ، واخذوا ينهبون الطحين الوارد الى بيروت لحاجات العساكر المصرية فاصابوا توفيقاً . وفي احد

---

١) كان الدروز يُقيمون في دير القمر قبـل سنة ١٨٦٠ المشؤومة . وكان المشايخ النكديون ذوي الاقطاع فيها . ولكنهم جلوا عنها بعد ذلك بامر الدول التي وضعت نظام لبنان .

الايام هجم على رأس رجاله على بيروت ، وفاجأ ما بين بوابة يعقوب وبوابة الدركي شرذمة من الجند ، وامامها رأس غنم مذبوح. فبدد شملها وغنم منها خمساً واربعين بارودة والخروف . ثم اخذ عدد الثائرين يزيد حتى اصبح مركز الثورة الاساسي في ساحل بيروت. وقد انضم الى رجالها اهالي الشويفات وبعبدا والحدث ووادي شحرور وكفرشيما. فخرجت لقتالهم فرقة من الارناؤوط بقيادة الضابط مجهر آغا ، فلاقاها اللبنانيون الى محلة الاشرفية بقلوب جريئة تخفق فوق رؤوسهم راية مؤلفة من اللونين الاخضر والاحمر تعلوها حربة في رأسها صليب ووقعت بين الفريقين معركة دامية اندحر فيها المصريون ، وقتل ابو سمرا قائدها بيده وغنم حصانه وخمسة آلاف غرش وزعها على الثائرين . ولما بلغ خبر هذا الانتصار اهالي سائر الانحاء اللبنانية ، هبطوا من اعالي الجبال وانضموا الى اخوانهم يتقدمهم امراء ومشايخ اذكر اوفرهم شهرةً وهم : الامراء فارس حسن ، ويوسف سلمان ، ومحمود سلمان الشهابيين ؛ وعلي منصور قايدبيه ، وعبدالله شديد مراد ، وعلي فارس ، وبشير احمد ، واسماعيل حسن قايدبيه اللمعيين ؛ والمشايخ فرنسيس حنا هيكل المكنى بفرنسيس ابي نادر والملقب بسردار عسكر النصارى ، وعفيف صالح ، ونقولا خازن ، وشمسين صفا ، وصالح هيكل ، وبشاره فرنسيس الخازنيين ؛ والشيخ عيسى الخوري ، والمشايخ يوسف حمزه ، وبطرس وحنا ابني واكد الحبيشيين ؛ وزعيتر راشد ، وخطار حنا من الدحادحة ؛ والامير خنجر الحرفوش واخوه سليمان من امراء متاولة بعلبك . وبرز من بكفيا الفارس المغوار يوسف الشنتيري المشهور.

وفي السابع من شهر حزيران اجتمع بعض اهالي كسروان والمتن وغير جهات في انطلياس ، واتفقوا على توحيد الكلمة والرأي في العمل ودخلوا الكنيسة ، ووقعوا عهداً يلعنون فيه من يخون المحالفة.

وقد نشر تاريخ ابو سمرا غانم نص هذا العقد وهو بحرفه :

الداعي لتحريره

انه يوم تاريخه قد حضرنا الى ماري الياس انطلياس نحن المذكورة اسماؤنا به بوجه العموم من دروز ونصارة ومتاولة واسلام المعروفين بجبل لبنان من كافة القرى وقسمنا يمين على مذبح القديس المرقوم باننا لا نخون ولا نطابق بضرر احد منا ابدًا بل يكون القول

واحد والراي واحد ونحن جمهور الدروز اذا حدس منا وبان ادنا خلل نكون باريين من ديانتنا ومقطوعين من شركة الدروز والخطوط الخمسة وتكون نساؤنا طالقة من السبعة مذاهب ومحرمة علينا من كافة الوجوه وايضاً يشهد علينا القديس مار الياس ويكون خصمنا وقد قمنا علينا شيخاً جناب الشيخ فرنسيس ابن جناب الشيخ حنا هيكل الخازن من غوسطا ونحن جمهور النصارة الذين يخون منا يكون مار الياس خصمه ولا يكون له موتة على دين المسيح . حرر في ٨ ربيع آخر سنة ١٢٥٦ الف ومائتين وستة وخمسين صح صح صح

ونصاره ومتاوله واسلام　　　　المقر بما فيه

بوجه العموم　　　　جمهور الدروز في جبل لبنان

صح انه حضرت المدونة اسماؤهم اعلاه قسموا يمين على مذابح مار الياس بحسبما هو محرر اعلاه وللبيان حررنا بيدهم هذه الشهادة تحريرًا في ٧ حزيران سنة ١٨٤٠ مسيحية

صح كاتبه القس سبيريدون عراموني
خادم مار الياس انطلياس انطونياني

وهجم ابو سمرا برجاله وبمعيته يوسف الشنتيري ، على العسكر المصري المرابط عند الكورنتينا ، وهم يهزجون باغاني الحرب ، فالقوا الرعب في قلوب المصريين ، فهربوا من امامهم مدحورين بعد ان قُتل منهم عدد وافر . ومنذ ذاك الحين اخذ اللبنانيون يهزجون باسم ابي سمرا والشنتيري فقالوا :

في سبعين في الديري　　بو سمرا والشنتيري
ما التفوش عند السلطان الخ . . .

كل هذه الحوادث جعلت المصريين يقومون ويقعدون . فامر ابراهيم باشا الامير بشيرًا ان يستعمل نفوذه في تسكين الخواطر . فاهتمّ الامير بالامر جدّ الاهتمام ، وارسل من قبله الامير بشير قاسم ملحم يسترضي الثائرين فابوا الاذعان ، فاوفد اليهم ثانية الامير ملحم بعبدا ، فلم يفلح في اقناعهم . فارسل ثالثاً ولده الامير امين وطفق يغريهم على الطاعة ويحذرهم من شر العواقب . فاجابوا انهم لا يسلمون الا اذا استجيبت مطاليبهم ، وقد وقعوا اليه كتاباً مؤرخاً في الحادي عشر من حزيران نشره المؤرخ بوجولا الفرنساوي في كتابه المعنون «*Voyage dans l'Asie Mineure*» رأيت من المفيد ترجمته الى العربية وهو :

« انكم لا تجهلون مع الامير بشير المظالم التي يتحملها اهالي لبنان وصنوف الارهاق والضرائب التي ينوءون تحت اثقالها . لما تبسطت سيطرة حكومة محمد علي على بلادنا كان اللبنانيون في مقدمة الذين ادّوا فروض الطاعة وقد رافقوا الجيوش المصرية الى محاربة دمشق وساروا الى ملاقاتها في حماه وطرابلس . ولما ثار اهالي صفد ونابلس والمتاولة ذهب اللبنانيون

بعية الامير بشير وحاربوهم واجبروهم على طاعة الدولة المصرية وقد املوا لقاء هذه الخدمات التخلص من الجور والعسف . ولكنهم ساؤوا فالاً وخابوا رجاء وكوفئوا بان جُردوا من سلاحهم واجبروا بعد ذلك على التجند فكان هذا اشد المصائب التي نزلت بهم . وانهم اغتصبوا نساءهم وانزلوا بهنّ جميع انواع النكال وربطوهنّ الى الاشجار . وقد اوجب عليهم الامير بشير دفع مال الفُرده الذي تقاضاه ايضاً عن الذين ماتوا او هلكوا في الحروب في سبيل المصريين ولما اكتشفوا منجم الفحم الحجري في الجبل الزموا اللبنانيين بتعدينه واكرهوهم على تقديم ادوات العمل بدون ان يدفعوا لهم اجرهم وارسلوا مراقبين يناظرون الاعمال وكانوا يدفعون للعملة وللمكارين لنقل الفحم الى بيروت اجوراً زهيدة واكرهونا على دفع باقي المرتبات من جيوبنا وعلى تقديم الاخشاب والاكياس ولم يدفعوا لنا سوى ربع قيمتها وسخرونا بنقلها من قرانا الى المنجم مجاناً . ولو شئنا تعداد جميع هذه المظالم لطال بنا المجال ولوجب علينا ان نعدّ ضربات العصي والاهانات التي انزلوها بنا كما فعلوا بفلاحي مصر . ولا نذكر الاموال التي نقدّمها لامرائنا وللبلوكباشية . ومنذ وضعوا المحجر الصحي الى الان قد اوجبوا على ابناء الجبل ان يقدموا الكلس بثمن بخس وان ينقلوه بدون اجر على دوابهم . وفرضوا ضرائب جديدة على المطاحن وساقوا البنائين قسراً الى عكا والى المحجر الصحي والى غير انحاء بعيدة بربع الاجر المعتاد واكرهوا الناس على العمل في الاشغال العمومية في المدن والقرى وفي كل مكان حتى اصبحت العيال اللبنانية في اشد حالات الفاقة والاملاق . وشمل الخراب كافة البلاد لنفاد المال والرجال والماشية منها . وعلت الارض ونضب مورد الرزق . وكثيرون من المكارين اهلكوا بغالهم او جمالهم او باعوها بابخس الاثمان تخلصاً من السخرة . وقد استاقوا السواد الاعظم منا الى العمل في منجم الفحم او في خدمة الجيش . ولما أُنزلت باخواننا ومواطنينا اهالي حوران نقم الحرب وسيموا خسفاً وهواناً سلّمتنا الحكومة اسلحة وارسلتنا الى قتالهم فقمنا بهذا العمل مدة سنتين وقد لقي الكثيرون منا حتفهم إما من مشقات السفر او في ساحات القتال وقد تكلفنا فوق هذه الخسائر البليغة نحو الفي كيس . ولما رأينا اخيراً اننا اضعنا اموالنا وفقدنا اولادنا وخسرنا حريتنا وانه لم يبقَ لنا سوى الهلاك واليأس ثار ثائرنا لنتخلص من الجور ونغنم شيئاً من الراحة والحرية فاذا كانت الحكومة تراعي العدالة وترفع عنا نير الظلم ، فاننا مستعدون للتسليم والانصياع الى اوامرها . لاننا لا نطمع من ثورتنا بانشاء دولة وانما جلّ مرادنا هو ان ننجو من هذا الجور الذي لا يطاق لاننا لا نستطيع ان ندفع سوى مال اميري واحد على املاكنا والجالية . فان قبل التماسنا وارتفع الظلم عن عواتقنا كان لنا مطاليب نرجو تحقيقها وهي : ان يؤخذ منا مال اميري واحد ومال عنق واحد (جالية) وان يجمع المال تحت إشراف عمال انكلترا وفرنسا وبواسطة قناصلهم في هذه البلاد حتى اذا كانت الحكومة لا تقوم بهذه التعهدات بكل دقة يبقى لنا الحق ان نطلب من هاتين الدولتين تنفيذها . واننا سنبقى مرابطين في اماكننا الحالية منتظرين الجواب فان كان بالايجاب افترقنا كلٌ الى بيته وان كان بالرفض فنحن مؤثرون الموت على الحالة الحاضرة . فلتتدبر السلطة الامر .

عموم اهالي جبل لبنان

لقد انتظر الثائرون على غير جدوى رجوع الامير امين اليهم حاملاً البشرى باجابة رغائبهم . ولكن من اين للامير امين ولابيه الامير بشير ان يحققا طلبات اللبنانيين وقد تجافى ابرهيم باشا عن قبول رأيهما مهما كان سديداً . فعقد حينئذٍ زعماء الثورة اجتماعاً تداولوا فيه في ما يصلح عمله فقر رأيهم على قطع الطرق على العساكر المصرية منعاً لها من دخول الجبل . فاختاروا توجيه الامير محمود سلمان الشهابي الى جهة صيدا ، والامير علي منصور اللمعي الى جهة البقاع ، والامير فارس والامير يوسف الشهابيين الى جهة الحازمية ، وابي سمرا الى جهة طرابلس .

واليكم ملخص تلك الحوادث كما وصفها الشيخ طنوس الشدياق في كتابه « اخبار الاعيان في جبل لبنان » :

وفي اليوم الثالث بعد اجتماع رأيهم على قطع الطرق عن العساكر المصرية ، توجه الامير محمود الى جهة صيدا ومعه احمد داغر وبعض انفار . وتوجه الامير علي منصور الى المتن ليجمع رجالاً من هنالك ويسير بهم الى البقاع . وتوجه ابو سمرا الى جهة طرابلس بمائة نفر ابقاهم محافظين في انطلياس ونهر الكلب وجونية . ولما وصل الى غزير تبعه من المشايخ الحبيشية يوسف حمزة وبطرس وحنا ابنا واكد . ثم نهض الى الفتوح بانفار ، فتبعه من المشايخ الدحادحة زعيتر راشد وجماعته . ثم نهض الى جرد كسروان فغزا اربعة افراس من خيل الامير عبد الله . ثم نهض الى جبة المنيطرة فتبعه المشايخ الحمادية بمائتي نفر من جماعتهم المتاولة ، فانحدر بهم الى جبيل وجمع رجالاً من تلك البلاد ووضع انفاراً في جبيل . ثم نهض الى البترون فلحقه من المشايخ الخوازنة شمس صفا وعساف البدوي ، ومن المشايخ بني صالح خطار قيس ، ومن المشايخ الدحادحة خطار حنا . فوضع في البترون انفاراً ونهض الى اميون ثم الى جبة بشري فارسل اولئك المشايخ الى زغرتا .

ولما بلغ والي طرابلس قدومه ارسل اليه اربعة آلاف عسكري نظامي بمدافع . فالتقاهم وانتشب الحرب بين الفريقين فانكسر ابو سمرا الى ايعال ، وقتل من جماعته سبعة انفار ومن العسكر المصري نحو عشرين نفراً . وعاد

العسكر الى طرابلس . وفي اليوم الثالث قصده عسكر طرابلس الى ايعال فالتقاهم بن معه ، فشنّ الغارة عليهم فانكسروا الى طرابلس ، فاعمل اللبنانيون في اقفيتهم السلاح (وظلوا يطاردونهم حتى دخلوا بوابة التبانه) واخذوا منهم مدفعاً بعد ان قتلوا منهم خمسين نفرًا وقتل من اللبنانيين نحو عشرين.

ثم سار ابو سمرا الى الضنية فاستقبله المشايخ بنو رعد . وفي الحال جمعوا رجالهم ونهضوا على متسلم الدولة المصرية وقتلوه ، واستلموا مقاطعتهم . فبلغ والي طرابلس ذلك ، فارسل عسكرًا لمحاربتهم ، فالتقوه الى قرية سجفه وانتشب الحرب بينهم فانكسر العسكر المصري الى قرية مرياطا وقتل منهم جماعة . ومن الغد رجع اليهم العسكر المذكور ، فانكسروا وتبددوا وقتل منهم ثلاثون نفرًا وأسر عشرة رجال . ثم توجه ابو سمرا بالمتاولة الى وادي موسى ، وهناك اجتمع اليه نحو مائة وخمسين نفرًا . وقصد متسلم عكار وقتله ونهبه واخذ منه اربعة من خيله وحاصر جماعة من قرية الريحانية على شاطي البارد ثم انهزموا، فنهب ابو سمرا تلك القرية وانطلق الى جرد عكار . وانفضت جماعته عنه ثم توجه الى مزيارة فاختبأ . وفي تلك الاثناء ارسل متسلم بيروت باخرتين الى اسكلة جونية لالقاء الرعب في قلوب الكسروانيين وسلب ما فيها من الغلال ، ان امكن . فلما علم بذلك سكان كسروان اسرعوا الى جونيه ، وصدوا المصريين عن اتمام ما قصدوا ، والجأوهم الى الرجوع فارغي الايدي الى المراكب وقد اطلق المصريون المدافع على الثائرين فلم يُصَب باذاها احد . غير انها عطلت بعض القوارب ، وسلبوا سفينة كانت في البحر وعادوا الى بيروت.

وفي غضون ذلك قدم عثمان باشا المصري الى بعلبك بثمانية آلاف جندي . فنهض رجال ثورة المتن مع الامير منصور ابو اللمع من المريجات الى السهل ، وجرت هنالك موقعة هائلة . فانكسر الامير بعسكره لقلته ، وقتل من المتنيين مائة وثمانية عشر رجلاً.

اما اللبنانيون الذين توجهوا الى نهر الاولي فقد حاربهم عباس باشا بجيش وافر العدد . وبعد معركة دامية تشتت اللبنانيون ، وعاد اهالي دير القمر الى بلدتهم . فصفح عنهم الامير بشير ، كيف لا وهم رجاله واخصاؤه واعوانه عند

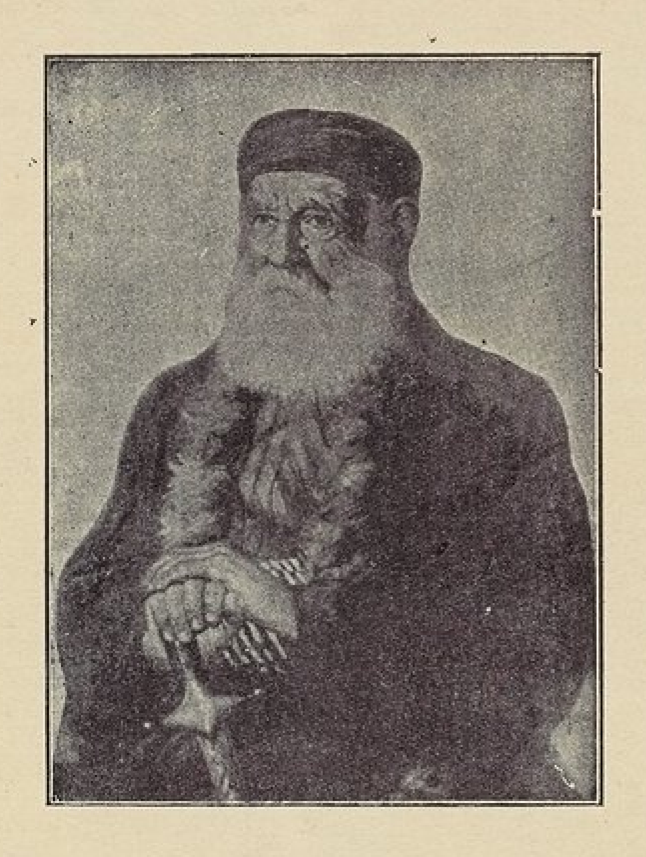
الملمات . فاخلدوا الى السكينة.

واما رجال ثورة سنّ الفيل فقد طاردهم الارناؤوط وهزموهم . ثم مشوا الى قتال رجال ثورة حمانا الذين كان يقودهم الامير خنجر الحرفوش، فادركوهم تجاه المكلس . وبعد ان ناوؤوهم برهة دحروهم وشتتوهم.

لا عجب اذا دحر المصريون اللبنانيين واخمدوا ثورتهم . واما العجب كل العجب ففي فوز آبائنا في بعض المعارك مع قلة ذات يدهم وعوزهم الى المال اللازم للقيام بمثل هذه الاعمال العظيمة، وافتقارهم الى الذخائر والاسلحة وسائر الاعتدة الحربية.

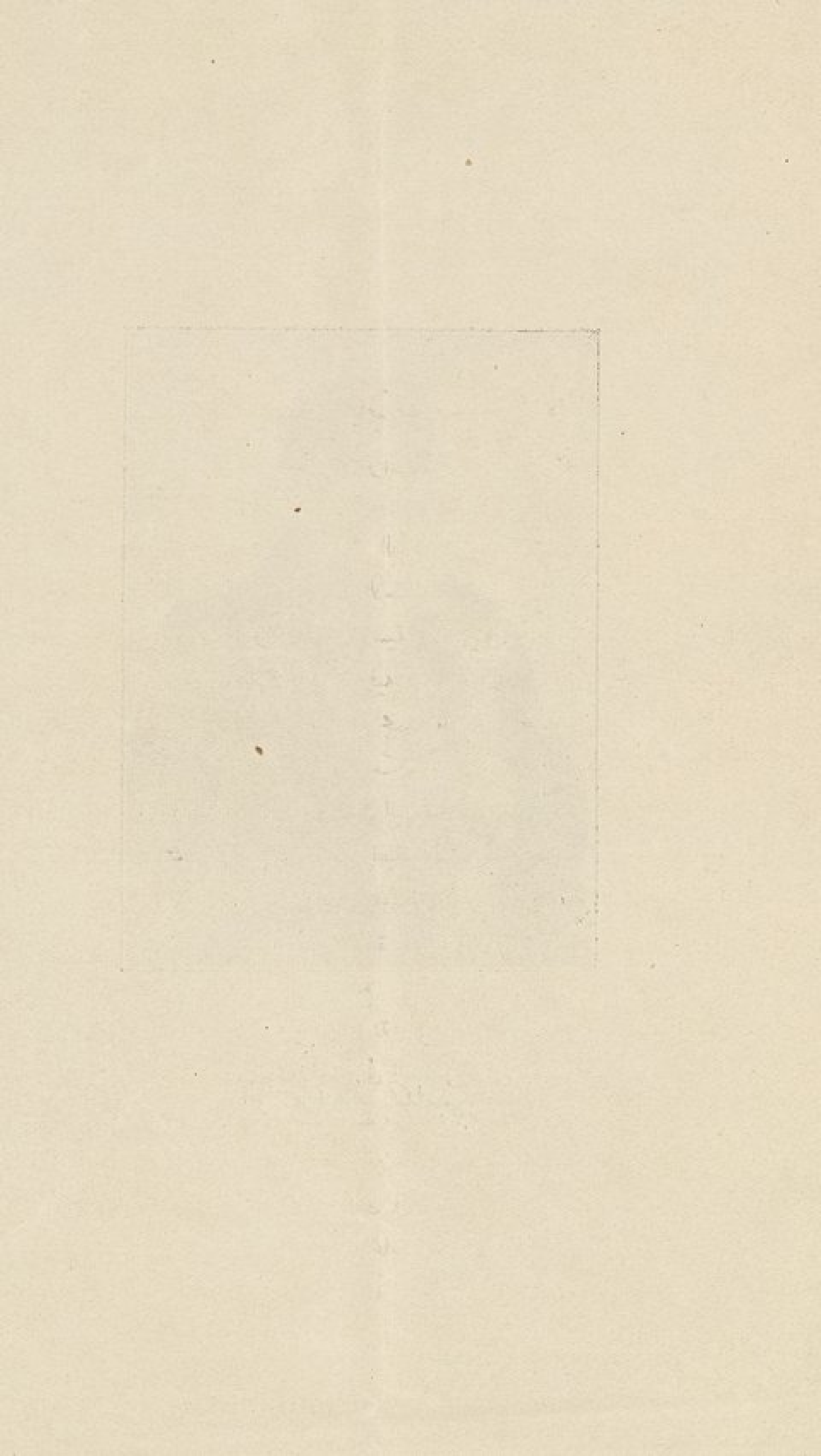
وقد تاه زعماء الثورة في كل سبسب طالبين النجاة من غضب ابراهيم باشا والامير بشير . بيد ان بعضهم وقعوا في ايدي رجال السلطة فسيقوا الى عكا ومنها الى الاسكندرية فمصر حيث اعتقلوا فيها، ثم أبعدوا الى سنار في بلاد المغرب . وظلوا هناك الى ان خرجت الجنود المصرية من لبنان والبلاد السورية. وقد كان عدد المنفيين سبعة وخمسين رجلاً اذكر منهم الامير يوسف شهاب، والامراء حيدر وعلي قايدبيه وعبدالله مراد وعلي فارس اللمعيين، والمشايخ حمود وقاسم وعباس ناصيف النكديين، ونقولا وبشاره وولده حصن وروفائيل الخازنيين، ويوسف الشنتيري وصليبي يزبك من بكفيا.

وفرّ الشيخ فرنسيس ابي نادر الخازن الى قبرص، وفرّ اليها ايضاً الامير اسماعيل ابي اللمع . اما ابو سمرا فبعد ان اختبأ مدة في مزياره غادرها الى دير القديس انطونيوس قزحيا حيث بقي محاطاً بتكريم الرهبان وعنايتهم الى ان طلبه قائد الجيش العثماني الى جونيه كما سيجيء تفصيله.



البطل اللبناني المشهور

ابو سمرا غانم البكاسيني



احتلال عساكر الدولة العثمانية مع عساكر الدول المتحالفة شواطىء لبنان ، واستئناف الثورة

بعد أن ظفر ابراهيم باشا بالجيش العثماني في موقعة نزب ، اضطربت دول اوربة وخشيت من تقدم المصريين الى الاستانة فيختل بذلك التوازن الاوربي . فعقدت انكلترة وروسية والنمسة وبروسية في مدينة لندرة ، في الخامس عشر من شهر تموز سنة ١٨٤٠ ، مؤتمرًا قررت فيه مناصرة الدولة العثمانية على الحكومة المصرية ، واغتصاب ثمرة فتوحاتها وارغام محمد علي على الطاعة للسلطان . لانه لم يكن من مصلحة هذه الدول تعزيز حكومة من وراء نجاحها نجاح دولة فرنسة التي كانت تعضدها بالمال ، وتبعث اليها بالماهرين من رجالها ذوي الاختصاص لادارة شؤونها العسكرية والمالية والزراعية والعلمية والصحية . فكتبت هذه الدول الى محمد علي تُنذره بوجوب اعادة سورية الى السلطان ، فلم يذعن فسيَّرت اسطولًا يقلّ جيشاً محارباً بقيادة الكومودور نابيار الانكليزي الى لبنان . فحاصر بيروت التي كان يدافع عنها سليمان باشا . ثم احتلت الجيوش المتحالفة جونية في العاشر من ايلول سنة ١٨٤٠ . وكان عدد القوات العثمانية خمسة آلاف وثلاثمائة جندي يقودها والي الدردنيل السر عسكر محمد عزت باشا ، والد عزيز باشا احد ولاة بيروت من نحو اربعين سنة . وكانت القوات المصرية بحسب تعديل بعض المؤرخين ثمانين الف رجل منها خمسة عشر الفاً بقيادة سليمان باشا في بيروت ، وثلاثة آلاف في صيدا ، وخمسة الاف في طرابلس ، وعشرة في بعلبك ، والباقي في كافة الانحاء السورية .

وقد اذاع الكومودور نابيار بلاغاً على سكان سورية ولبنان أترجمه عن

كتاب « القسطنطينية ومصر » للمؤلف سيزار ڤيمركاتي (César Vimercatti) وهو :

« ان بريطانية العظمى وروسية وبروسية والنمسة المتحالفة مع الباب العالي قد عزمت على ازالة يد محمد علي الغاصبة عن سورية . وغاية مهمتي هي ان احضكم على خلع هذا النير المكروه .

« ايها السوريون ، ارجعوا الى القيام بواجبكم . لقد صدر خط شريف بوشر تنفيذه في السلطنة العثمانية يكفل لجميع رعايا السلطان حياتهم واموالهم .

« وقد تعهد الباب العالي بواسطة الدول الاربع بتحسين احوالكم لكي تعيشوا في اكثر سعادة واوفر طمأنينة من قبل .

« يا اهالي لبنان الذين اراكم بأم عيني تنوؤون تحت اثقال الشقاء الذي يمكنكم تجنبه . هبوا هبة واحدة واصغوا الى الصوت الذي يعمل على جمع شملكم وعلى اعادة السلام اليكم . ستأتيكم من القسطنطينية مساعدات قريبة مع اسلحة وذخائر حربية . والمراكب المصرية لا تعود من بعد تظهر في شواطئكم لارهاقكم .

« يا جنود السلطان ! . . انتم الذين اكرهتكم الخيانة على هجر اوطانكم وساقتكم الى رمال مصر وسورية المحرقة ان البادشاه يستحلفكم لتعودوا الى طاعته . اني اعددت بالقرب من المحجر الصحي سفينتين لقبولكم تحت الحماية الاجنبية . واذا قاومتكم عساكر الباشا فالويل لها من غضب اوربة .

« ان سلطانكم يؤكد لكم مع اليمين الصفح عن الماضي مع الوعد بدفع مرتباتكم المتأخرة . هلموا ولا تبطئوا ومن ينضوي من جديد تحت الراية العثمانية تعاد اليه مرتبته وحقوقه .

الامضاء

الكومودور الامير الاي نابيار »

لم يذع هذا البلاغ في البلاد حتى اخذ الاهلون يهرعون من اعالي الجبال الى جونية لتقديم الطاعة والتسليم للدولة العثمانية . وفي المساء انيرت المرتفعات اللبنانية بانوار الفرح معلنة ابتهاج البلاد بنجاتها من نير المصريين .

وكتب عزت باشا الى ابي سمرا كتاباً يدعوه فيه اليه ، فلبى الطلب وظهر من مخبإه وجاء على رأس مئات من اللبنانيين الى جونيه ، فقابله السر عسكر بمزيد الحفاوة والاعزاز ، وسلمه اربعة الاف بارودة مع ذخائرها ليوزعها على رجاله ونصبه شيخاً على كافة انحاء لبنان الشمالية ، وامره باستئناف محاربة العساكر المصرية . فسار الى عيناتا وواقع فيها المصريين ودحرهم ، وطاردهم ايضاً في اراضي اليمونه وجلاهم عنها .

فصل الامير بشير قاسم عمر الكبير من ولاية لبنان ، وتنصيب الامير بشير قاسم ملحم مكانه

بعد ان احتلّت الدول المتحالفة ارض لبنان ، حار الامير بشير في امره ، ولم يدرِ ماذا يفعل أيظلّ موالياً للحكومة المصرية ام يستسلم الى اعدائها ؟ وبينما هو في التفكير كتب اليه الكومندان ستوفور الانكليزي يُغريه بتقديم الطاعة وبالاعتراف بولاية السر عسكر محمد عزت باشا على مصر وسورية ، وبالتسليم للباب العالي مع الوعد ببقاء ولاية الجبل له كما كانت في السابق . وضرب له موعداً لذلك ثمانية ايام . ولما كان الامراء ابناء الامير واحفاده يحاربون في صفوف العساكر المصرية في انحاء متفرقة لم يكن له متسع من الوقت ليعلمهم بالامر ، فابطأ في الجواب على دعوة القومندان ستوفور . فاصدر السر عسكر في نهاية المهلة المعطاة للامير امراً بخلعه من ولاية الجبل وبتولية الامير بشير قاسم ملحم مكانه . حينئذ اضطر الامير الكبير الى التسليم للانكليز ، فترك بتدين بعد ان عهد الى المشايخ آل حماده في بعقلين ، وكانوا من اخص رجاله ، بحراسة سرايه ودوره فيها ، وجاء صيدا ومنها نقلوه الى بيروت حيث انتظر مجيء اولاده واحفاده . ومنها نقله مركب انكليزي مع كافة افراد عائلته الى مالطه ، ولذا دُعي بالمالطي تمييزاً له من سواه من الامراء الذين يحملون اسم بشير . ثم انتقل منها الى بروسه فالاستانة حيث عاش الى سنة ١٨٥٠ ، ودفن في كنيسة الارمن الكاثوليك .

والامير بشير الكبير تولى الامر في لبنان نيفاً واثنتين وخمسين سنة ملأها من جليل الاعمال وغرّ المآثر ما يخلد ذكره مدى الاجيال ، ويا حبذا فكرة الذين قرروا نقل رفاته الى الوطن وجعل قصر بتدين متحفاً تجمع فيه آثاره وتزينه مفاخره . وان ذكرت البلاد نوابغ امرائها كان الامراء فخر الدين المعني ويوسف وبشير الشهابيين اعلاهم قدراً واعظمهم شأناً .

متابعة قتال اللبنانيين للمصريين ومطاردتهم الى غزة

ولما تولى الامير بشير ملحم الامارة انضمّ اليه معظم الثائرين وواقعوا المصريين في امكنة كثيرة ، فكان النصر تارة في جانب الثوار وطوراً في جانب المصريين . وكان كثير من اللبنانيين كاولاد الامير بشير واحفاده ، اخص منهم بالذكر الامراء خليل ومجيد ومسعود وغيرهم من الامراء الشهابيين واللمعيين والمشايخ من ذوي الاقطاع يناصرون المصريين على الثوار . وقد انشطر الخازنيون الى فئتين : الواحدة وعلى رأسها الشيخ كنعان بان ، والد الشيخين صليبي ورشيد والذي كان متولياً مقاطعات الخازنيين الثلاث ، ظلّت موالية للحكومة المصرية ؛ والثانية وعلى رأسها الشيخ فرنسيس ابي نادر كانت مناوئة لها. ولما جرت المعركة الاخيرة بين الثوار والمصريين في جرد كسروان ، ودّع ابراهيم باشا صديقه الشيخ كنعان بان وداعاً مؤثراً ، وانعم عليه بمال جزيل ، ووهبه صندوقة من خشب الابنوس مصفحة بالحديد البديع الصنعة مع عدة من السلاح الثمين ، ولم يزل حفيده الشيخ بان صليبي الخازن محتفظاً بها كأثر نفيس.

وممن بقي على ولاء المصريين المشايخ آل جميّل . ولما غضب ابراهيم باشا على المتنيين وامر بتدمير قراهم ، فبعد ان حُرقت بيت شباب جاءه الشيخان حردان الجميل وفياض علوان الى المروج حيث كان وقتئذٍ ، وشفعا لديه بقريتهما بكفيا ، فعفا عنها وصينت من الحريق والنهب.

اما الشواطئ البحرية فقد احتلّها الحلفاء على التعاقب ففتحوا قلعة جبيل في الثالث عشر من ايلول ، ثم استولوا على البترون . وفي الـ ١٧ منه دخلوا حيفا ، وفي الـ ٢٤ اخذوا صور ، وفي الـ ٢٦ وقعت صيدا في ايديهم.

وفي ١٠ تشرين الثاني جرت معركة دامية في بحرصاف . وكان يقود الجنود العثمانية والحلفاء والثوار عمر باشا النمساوي الذي جعل سنة ١٨٤١ حكمداراً على لبنان ، والجنرال سليم باشا والجنرال جوكوس ؛ وكان يقود المصريين ابراهيم باشا نفسه . فانهزم الى قرنايل ومنها الى البقاع ، ولما بلغ حامية بيروت خبر انكساره وفراره استسلمت في الحادي عشر من الشهر المذكور الى الحلفاء .

اما عكا فقد اطلقوا عليها المدافع من البحر، وبعد حصار بضعة ايام احتلها النمساويون في الثاني من تشرين الثاني. وكان على رأسهم الارشيدوق فريدريك ابن عم الامبراطور فرنسيس يوسف.

وبعد ان ناوأوا الثوار المصريين في انحاء عديدة من البقاع والاراضي السورية، ظلوا مجدين في أثرهم حتى بلغوا مدينة غزة. وهنا كانت آخر وقعة حصلت بين الفريقين المتحاربين. ثم رجع اللبنانيون الى اوطانهم. واما ابراهيم باشا فبقي متابعاً الهزيمة الى مصر تحدق بجيوشه المخاطر وتحف بها المخاوف في بلاد عقد سكانها الخناصر، على اختلاف مذاهبهم، على عداوته. وقد لقي من المحن والشدائد الشيء الكثير، وفتكت الامراض والاوبئة بجنوده، وهلك العدد الغفير منهم من نكبات الجوع والبرد والعطش، وروى بعض المؤرخين ان عدد الضحايا البشرية من المصريين يزيد على عشرين الف رجل.

***

تُرى ما الذي جناه محمد علي من احتلال سورية؟ لا شيء سوى فقد الرجال وضياع الاموال وخراب الديار، واحلال الدمار محلّ العمار.

لقد فشل محمد علي كما فشل معظم قادة الشعوب الذين تسوّل لهم انفسهم وتزيّن لهم المطامع حبّ التوسع واكتساح المدن وتدويخ البلدان للتسيطر عليها واخضاعها، فيُغلبون على امرهم، وتخونهم الحظوظ وينكسون على اعقابهم تاركين وراءهم سلاسل من الويلات والارزاء.

واما بلادنا اللبنانية فقد جنت عليها الحملة المصرية جناية لا تغتفر. ان السياسة المصرية كانت العامل الوحيد في انقسام اللبنانيين على بعضهم، وفي تأسيس العداوة بين الدروز والمسيحيين. اجل ان التفريق الذي اوجده بينهم ابراهيم باشا، لما امر بجمع سلاح الدروز وبتسليح المسيحيين ليناصروه عليهم، كان من وخيم عواقبه توالي الحروب الاهلية بين الطائفتين العزيزتين من سنة ١٨٤١ الى سنة ١٨٦٠. ولقد أريقت دماء غزيرة ونزلت في الوطن المحبوب نكبات شديدة وبلايا عظيمة وعمّ في الربوع الجنوبية الخراب والدمار. ولكنّ الدول الاوربية وفي مقدمتها فرنسة التي ارسلت عساكرها باسم اوربة

لوضع حدّ لهذه المجازر البشرية ، عقدت اجتماعات عديدة كانت نتيجتها وضع نظام لبنان الذي لقينا بعده الراحة وفزنا بالسلام الى سنة ١٩١٤ .

الآثار الحسنة التي تركتها الحملة المصرية في لبنان وسورية

يجب علينا ، قبل اختتام هذا البحث ، ان نذكر شيئاً صالحاً تركت اثره الحملة المصرية في وطننا العزيز من شأنه ان يلطف مرارة الويلات التي نزلت به ويحملنا على نسيان العداء الذي كان لآبائنا نحو المصريين.

ان ابراهيم باشا قد مهّد السبيل لاطلاق الحرية الدينية باصداره الاوامر المشدّدة بمعاملة المسيحيين كالمسلمين في كافة الحقوق والواجبات. وهو الذي اجاز لهم الارتداء بالملابس التي كان يلبسها المسلمون دون سواهم . فالمسيحيون ، ما خلا الذين يقطنون لبنان ، كان محذورًا عليهم لبس الحرير والاعتمام بالعمائم البيضاء او الخضراء او الحمراء وانتعال الاحذية التي هي من هذه الالوان وركوب الخيل والسير في الطريق الى يمين المسلم خصوصاً في المدن الداخلية البعيدة عن لبنان كحمص وحماه.

كانت البلاد يحكمها ذوو الاقطاع ، فكانوا يستبدون بالشعب كاستبداد جميع الولاة والامراء الذين كانت ارادتهم هي القانون . فابراهيم باشا غرس في امصارنا الروح الديموقراطية بتأليفه مجالس الشورى من افراد الشعب ، وبمحاربته روح الفخفخة والعظمة باعطائه المثل الصالح ، اذ كان يظهر بين الناس بمظهر البساطة في لباسه ومعيشته . وقد روى القنصل غيس الفرنساوي في تآليفه ان ابراهيم باشا لما جاء دير القمر نزل في بيتٍ صغير لا ينزل عادة في مثله من كان دونه مقاماً . وانه زار ليلةً الامير بشير زيارة غير رسمية لم يرافقه فيها سوى خادم ، فاضطر الامير ان يردّ له الزيارة منفردًا لا يرافقه احد من رجال معيته.

وفي عهده طرح الامير بشير واولاده العمائم واستبدلوها بالطربوش المغربي ، وهو الطربوش الذي كان يلبسه محمد علي وابراهيم باشا . ولقد ظلّ اللبنانيون يلبسون الطربوش المغربي الى ان أبدل بالطربوش العزيزي اي الاستانبولي الذي صنع خصيصاً للسلطان عبد العزيز ودُعي باسمه . واما الجند اللبناني فانه لم

يترك الطربوش المغربي ليلبس العزيزي الا في اوائل حكومة واصه باشا ، رابع متصرفي جبل لبنان.

ولم يكن المسيحيون يتمتعون بالحقوق الاجتماعية والوطنيـة ، ولا يتقلدون الوظائف العالية وينالون الرتب والقاب الشرف حتى ساواهم ابراهيم باشا في ذلك بالمسلمين.

وقد تساوى المسيحي بالمسلم في كافة المعاملات والتكاليف ، وألغيت جميع الامتيازات التي كان يتمتع بهـا اقارب الولاة وذوو الاقطاع . وهـذه الحرية الدينية التي تمتعت بها بلادنا قد سهلت السبل لـلاوربيين وخصوصاً للمرسلين منهم الى دخول البلاد وانشاء المدارس في كافة الانحاء ، فكان ذلـك فاتحة عصر جديد لانتشار المدنية والتهذيب.

واما بيروت فهي مدينة للدولة المصرية اكثر من سائر المدن الساحليـة. فبعد ان كانت تابعة ايالة صيدا وعكا ، استقلت بنفسها. واعظم فائدة جنتهـا من حكومة محمد علي هي انشاء المحجر الصحي (الكورنتينا) فيها وبسببه اكرهت السفن الماخرة في مياه هذا القسم من البحر المتوسط على القاء مراسيها في مرفأ هذه المدينة. فكان ذلك فاتحة تقدمها على ما عداها من المدن الفينيقية ، فظلت متابعة السير في طريق النجاح حتى بلغت الى المنزلة العالية . وقد لقبوها في عهد الاتراك بالدرة الغاليـة في تاج آل عثمان ، واصبحت في ظل الانتـداب الافرنسي عاصمة لبنان وبهجته الفتانة.

لقد كان حبل الامن في سوريا مختلًا قبل الحكم المصري وقـد كانت الفوضى تسود في انحائها فلم يكن يمرّ يوم دون ان يسمع النـاس عن وقوع حوادث القتل والسلب وقطع الطرق. فاصلت الحكومة المصرية اهـل الشقاوة حرباً عواناً وما زالت تناجزهم القتال حتى قطعت دابرهم . وكان الاقدمون يروون امامنا خبرًا يصعب تصديقه ولكنه في كل حال يؤيد السمعة التي احرزها ابراهيم باشا في حبه للعدل وهو ان امرأة شكت اليه مرة ان احد جنوده ابتاع منها لبناً وابى ان يدفع ثمنه فامر باحضاره امامه ولما مثل بين يديه سأله عن شكوى الامرأة فانكرها. فالتفت الى الامرأة. وقال : اني سأبقر بطن هذا الجندي

فان ظهر فيه اللبن دفعت لك ثمنه وان بان كذبك قتلتك. قال هذا وامر فشق بطن الجندي فاندلعت امعاؤه وسال منها اللبن[1].

ولقد اولت الحكومة المصرية لبنان فضلا عميماً بقبولها بعض شبان في مدرسة القصر العيني الطبية على نفقتها، فعادوا الى وطنهم بعد اتمام دروسهم يخدمونه بكل اخلاص. واني لاذكر من حضرتني اسماؤهم كالدكاترة يوسف منصور مرهج لطيف، وحبيب الخوري غانم واخويه انطون وسليم، وشاكر يوسف الخوري واخيه امين، وسليم منصور المعوشي، وغالب الخوري البعقليني، ويوسف بشاره الجلخ، وفارس نجيم، وابراهيم النجار.

ولما وقعت نكبة السنة الستين جاد المصريون بالمساعدات المادية اسعافاً للمرزوئين وتبرع الخديوي سعيد باشا بخمسمائة اردب من الحنطة.

ولما عرفت الحكومة المصرية مزايا اللبنانيين الحسنة فتحت لهم ابوابها على مصراعيها، فانتشروا في كافة انحاء القطر يتاجرون، يفيدون ويستفيدون بعلومهم ومعارفهم وخبرتهم، فأسسوا المحال التجارية الواسعة وانشأوا الجرائد والمجلات الخطيرة كالاهرام والمقطم والمقتطف والاخبار والهلال والبصير وسائر ملحقاتها، وزاولوا التعليم، وانتظموا في دواوين الحكومة فاحرزوا بصدقهم وجدارتهم المراتب العالية. فمهدوا السبيل لتوثيق عرى الولاء بين الشعبين المصري واللبناني.

---

١) تروى هذه القصة عن كثير من امراء الشرق . وقد ذكرها ابن بطوطة في رحلته (١ : ٢٢٧)



LES EGYPTIENS AU LIBAN ET EN SYRIE

IL Y A CENT ANS



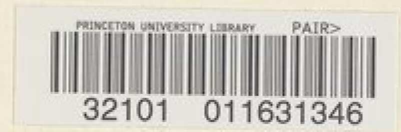
PAR

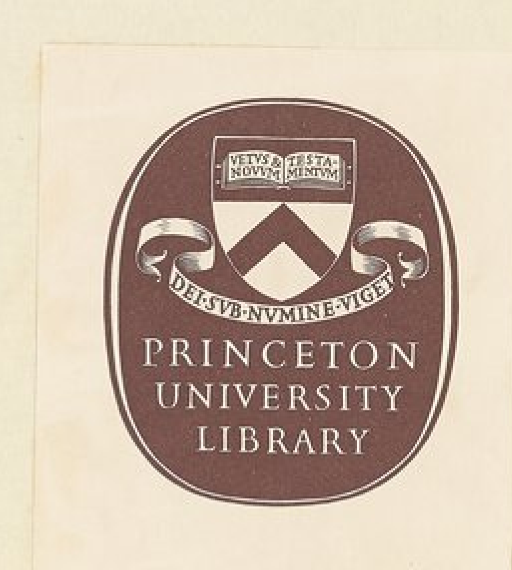
Me IBRAHIM ABOU SAMRA GHANEM

Extrait d'« Al-Machriq »



BEYROUTH
Imprimerie Catho[illegible]
19[illegible]


PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
PAIR>
32101 011631346


VETUS & NOVUM TESTAMENTUM
DEI SUB NUMINE VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY


WERT
BOOKBINDING
Grantville, Pa.
Sept.—Oct. 1987
We're Quality Bound


Princeton University Library
32101 075639656